رؤية الإيسيسكو إلى إصلاح الأمة في العصر الحديث

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري(*)

مدخل:

جاءت حركة الإصلاح في العالم الإسلامي التي قامت في العصر الحديث نتيجة لحركة اصطلح على تسميتها بأسماء ثلاثة: اليقظة، أو النهضة، أو الانبعاث، وهي الحركة التي خرجت بها الأمة الإسلامية من عصر الجمود والتخلف والتراجع الحضاري، إلى عصر جديد تشكلت ملامحه في القرن الثامن عشر للميلاد، ثم ما لبث أن تبلورت قسمات هذا العصر في مجموعة من حركات الإصلاح قامت في العديد من المناطق من العالم الإسلامي، خصوصاً في الجزيرة العربية (محمد بن عبد الوهاب: ١٧٠٣- ١٧٩٢م)، وفي اليمن (علي الشوكاني: ١٧٩٠- ١٨٣٤م)، والمرتضى الزبيدي: ١٧٣٢-١٧٩٠م)، وفي مصر (الجبرتي الكبير: ١٦٩٨-١٧٧٤م،والد الجبرتي المؤرخ)، وهي الحركات الأربع التي جمعت بين مجالات أربعة:

- تصحيح العقيدة.
- إحياء الاجتهاد.
- بعث اللغة.
- النهوض بالأمة.

وقد كانت جميع هذه الحركات الأساس الأول الذي انبنت عليه الحركات الإصلاحية التجديدية الإسلامية في العصر الحديث في المرحلة اللاحقة التي اقترنت بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبصورة أخص، في العقدين الأخيرين منه، وهي المرحلة الدقيقة والفاصلة التي ارتفعت فيها أصوات المصلحين من رواد النهضة في شتى الميادين، وبناة العالم الإسلامي الجديد الذي انبثق من تفاعل حركات الإصلاح مع الظروف التي نشأت فيها، ومن تجاوب قطاعات عريضة من الأمة مع أهدافها وغاياتها.

(*) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).

وقد كان الطابع الديني واللغوي – والطابع العلمي في حدود ضيقة – هو العنصر المميز لهذه الحركات الإصلاحية التي لا بد من وضعها في الاعتبار عند الحديث عن الإصلاح في العصر الحديث، انطلاقاً من مفهومه العام الذي يشمل إصلاح المجتمع سياسياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً وعلمياً وتعليمياً.

وقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب التي انطلقت من قلب الجزيرة العربية، حركة إصلاحية إسلامية انطلقت لتصحيح العقيدة ومحاربة الدجل والشعوذة وجميع الممارسات المخالفة لصحيح الدين، وقامت على تعاليم القرآن والسنة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح. وقد أثمرت هذه الدعوة ثمرتها، ولا تزال هذه الحركة حية ذات تأثير فكري ونفوذ روحي.

وكانت دعوة الشوكاني في اليمن تجديداً في فهم رسالة الإسلام، وإحياء للاجتهاد، وتأكيداً على ضرورة العودة إلى الأصول بدلاً من التعلق بالمسائل الفرعية الخلافية، بإصداره مجموعة من المؤلفات التي أحيت موات الثقافة الإسلامية، وجددت الفكر الإسلامي المعاصر، ومنها كتاب (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

وكانت الحركات اللغوية التي قام بها الزبيدي في كل من اليمن أولاً ثم في مصر التي أقام بها في الفترة الأخيرة الخصبة من حياته، بعثاً للغة العربية بعد قرون متطاولة من الجمود والهمود، بإصدار موسوعته الضخمة (تاج العروس من جواهر القاموس)[1].

وكانت الحركة العلمية التي قام بها الشيخ الجبرتي، وهو أبو المؤرخ الجبرتي الشهير المصري ذي الأصل الحبشي، تتمثل في اشتغاله بالعلوم التطبيقية وفي إجرائه الاختبارات العلمية الكيميائية والفلكية في سابقة رائدة؛ مما يعد وصلاً لما انقطع من السلسلة الذهبية العلمية التي ازدهرت بها الحضارة الإسلامية في عصور تألقها وتوهجها وعطائها الزاخر.

فكان هذا كله انبعاثاً وإصلاحاً تعددت مجالاته وتنوعت حقوله في مرحلته الأولى المبكرة التي سبقت المرحلة الحديثة التي تميزت بالطابع السياسي بصورة خاصة. وكانت تلك الحركة تعبيراً عن اليقظة والنهضة التي انبعثت في مصر وجزيرة العرب.

---

(١) صدرت الطبعة الجديدة المحققة من معجم (تاج العروس) عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت، في أربعين (٤٠) جزءاً من القطع الكبير.

نشوء حركات الإصلاح:

وقد نشأت حركات الإصلاح في العصر الحديث، في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر، والاحتلال الفرنسي للجزائر ثم لتونس، والتآمر الروسي ضد الدولة العثمانية، وبدء صراع الدول الأوروبية حول فرض الهيمنة على أجزاء من العالم الإسلامي، من المغرب في أقصى الغرب، إلى أندونيسيا في أقصى الشرق؛ مما اهتز معه الكيان الإسلامي الكبير، ووقعت به الصدمة الأولى التي هزت العقول والضمائر، وحركت الإرادات الوثّابة الحرة للعمل من أجل إصلاح أوضاع الأمة من النواحي كافة.

ففي هذه الأجواء، تحرك جمال الدين الأفغاني على خريطة شاسعة تشمل أفغانستان وإيران والهند ومصر واستنبول عاصمة الدولة العثمانية في المرحلة الأولى قبل أن ينتقل إلى أوروبا. ولم يبرز أثر لدعوته، إلا بعد هبوطه مصر، واحتكاكه بالطليعة المتنورة من أبنائها ومن أبناء الشام الذين كانوا يقيمون عهدئذ في مصر، وفي المقدمة منهم محمد عبده. وقبل هذه الفترة، كان للأفغاني نشاط محدود أثره لا يكاد يذكر، وهو الأمر الذي يعطي لمصر مكانة الصدارة في احتضان الدعوات الإصلاحية الإسلامية التجديدية في جميع حقول الإصلاح منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد انبثق عن حركة الإصلاح في هذا الطور من التاريخ الحديث، تيار الإحياء والتجديد للثقافة العربية وللفكر الإسلامي، وهو تيار عريض وفيه فصائل متمايزة، إن في ميادين اهتمامها، أو في حظها من التجديد، أو في مقاييس التجديد لديها. وينضوي تحت لواء تيار الإحياء والتجديد العشرات من الأسماء المتميزة في الثقافة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي السياسي التجديدي الإصلاحي الحديث.[1]

وقد انطلق تيار الإحياء والتجديد في إطار حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، من المنابع الثلاثة الآتية:

(١) نذكر من أسماء هذه الكوكبة من الرواد، رفاعة الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣)، خير الدين التونسي (١٨٩٠-.١٨١)، جمال الدين الأفغاني (١٨٩٧-١٨٣٨) محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) عبد الله النديم (١٨٤٥-١٨٩٦) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٥-١٩٠٢) محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ -١٩٢٩).

أولها: مبادئ الإسلام، كما تمثلت في منابعه الجوهرية والنقية: البلاغ القرآني، والبيان النبوي للقرآن الكريم، كما تمثل في السنة النبوية الثابتة.

ثانيها: ثوابت التراث العربي الإسلامي، التي مثلت قسمات الهوية الحضارية للأمة الإسلامية، والتي حفظت لأجيالها تواصلها الحضاري ووحدتها كأمة، عبر الزمان والمكان.

ثالثها: كل ما أبدعه العقل الإنساني، في مختلف الحضارات، مما هو (ابن الدليل) كما تمثل في الحقائق والقوانين التي مثلت وتمثل العلوم التي لا تتغاير موضوعاتها بتغاير الحضارات والمعتقدات، أي العلوم الموضوعية المحايدة، التي هي (مشترك إنساني عام) متميز عن (العلوم الإنسانية) ومنها الثقافة التي تدخل في الخصوصيات التي تتمايز فيها الحضارات[1].

وكانت السمات البارزة لرواد هذا التيار الإصلاحي الجمع بين اهتمامات فكرية عديدة، والانخراط في معارك ثقافية وصحافية على أكثر من جبهة للدفاع عن الأفكار الإصلاحية التجديدية.

ومن مدرسة جمال الدين الأفغاني تخرّج قادة الإصلاح في العالم الإسلامي في العصر الحديث يتصدرهم علمان اثنان، هما: محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي. وهما إن كانا يمتحان من نبع واحد، فإن مدة التقائهما معاً لم تتعد ثلاث سنوات، إذ وصل الكواكبي إلى القاهرة في عام ١٨٩٩، وتوفي بها في عام ١٩٠٢، بينما توفي محمد عبده بعده بثلاث سنوات (١٩٠٥).

وعند التأمل في المسيرة الفكرية التي قطعها الكواكبي، يلفت انتباهنا أن السنوات الثلاث التي قضاها في مصر، كانت هي فترة العطاء الغزير الذي خلد به ذكره.

وقد عاش عبد الرحمن الكواكبي حياته الفكرية من أجل هدفين كبيرين:

- الأول: إصلاح المجتمع والبحث في أسباب تأخر العالم الإسلامي ومحاربة الاستبداد وإصلاح الحكم ودعم مبادئ الحرية.
- الثاني: تطهير الإسلام من البدع والخرافات.

وتلتقي دعوة عبد الرحمن الكواكبي مع دعوة جمال الدين ومحمد عبده وتختلف عنهما.

فجمال الدين يؤمن بالانقلاب السريع (أسلوب الطفرة) في نطاق الجامعة الإسلامية، ويراه الوسيلة الكبرى للإصلاح وإقامة المجتمع الإسلامي الموحد، ويخاصم الإنجليز بخاصة

(١) د. محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي الحديث، ص ٩٩، دار الفكر، دمشق.

والاستعمار بعامة. ومحمد عبده يؤمن بالإصلاح عن طريق التربية، أما الكواكبي فيؤمن بمقاومة الحكم العثماني وإقامة خلافة عربية، ومقاومة الإنجليز وكل مستعمر. والكواكبي يلتقي مع محمد عبده في وسيلة التربية، ويلتقي مع جمال الدين في هدم الحكم الاستبدادي، وفي خصومته للإنجليز.[1]

كتب أحمد أمين يوازن بين الكواكبي والأفغاني فقال: "كانت معالجة الأفغاني للمسائل معالجة ثائر، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية، ومعالجة الكواكبي معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء، ويكتب الدواء في أناة، الأفغاني غاضب والكواكبي مشفق، الأفغاني داع إلى السيف، والكواكبي داع إلى المدرسة"[2].

وتشكل هذه الدعوات الثلاث، الإطار العام للإصلاح في العصر الحديث باعتبار أنها تتكامل على نحو يكسبها العناصر الحيوية لحركة إصلاحية شاملة تهدف إلى التغيير البناء في إطار الضوابط والثوابت والمبادئ والقيم التي لا يمكن التفريط فيها بأي دعوى من الدعاوى، وتحت أي ظرف من الظروف.

وقد اتجهت اهتمامات الرواد الثلاثة لحركة الإصلاح الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر، نحو تحقيق هدفين استراتيجيين، تفرعت عنهما أهداف كثيرة، هما:

- الأول: تحرير العالم الإسلامي من الاحتلال الأجنبي.
- الثاني: تصحيح الأوضاع العامة التي كانت تطبعها الممارسات المنحرفة عن جادة الإسلام والنظم المجافية لروح العدل والإنصاف والشورى واحترام حقوق الإنسان التي جاءت بها الشريعة السمحاء.

وقد نشأت حركة الإصلاح العام بمضامينه المتنوعة وفي مجالاته المتعددة، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي واقعاً تحت ضغوط شديدة ومؤتمرات قوية، ويقف في مفترق الطرق، يبحث عن مخرج من الأزمة الحضارية التي كانت المجتمعات الإسلامية غارقة فيها.

وشهدت تلك المرحلة الدقيقة التي عاشها العالم الإسلامي، تحولات عميقة على مستوى الفكر السياسي، والرؤية إلى العالم والتعامل مع القوى الاستعمارية التي كانت تتحرك في المساحة الدولية، على مستوى تفاعل المجتمعات الإسلامية مع الظروف الجديدة التي سادت فيها مفاهيم فكرية وثقافية جديدة، وعلاقات اجتماعية مستحدثة.

---

(١) أنور الجندي، أعلام وأصحاب أقلام، ص ٢٢٨، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٧٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ولن تستكمل الرؤية إلى نشوء حركة الإصلاح في العالم الإسلامي في العصر الحديث، إلا إذا استوفينا هذه العناصر جميعاً؛ ذلك بأن الإصلاح لم يبدأ سياسياً بالمصطلح المتعارف عليه، وإنما بدأ الإصلاح دينياً ولغوياً وعملياً وثقافياً -أيضاً-، إذا أخذنا في الحسبان الحركة الثقافية التي أخذت في الازدهار في كل من القاهرة وبيروت واستنبول وطهران ومناطق من الهند، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي تتمثل في نشر طائفة من أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، وفي إصدار الصحف بالعربية والتركية والفارسية والأردية.

ولذلك جاء الإصلاح السياسي الذي حمل لواءه أقطاب النهضة ورواد اليقظة، في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، مبنياً على ما سبقه من حركات إصلاحية، بعضها كان لايزال نابضاً بالحياة، وبعضها الآخر كان قد تعرض لانتكاسة بسبب الظروف التي استجدت، منها: الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨م) والإنجليزي لمصر أيضاً (١٨٨٢م)، وضعف الدولة العثمانية الذي جعلها تتراجع عن مقدمة الدول التي عرفها العالم في القرن السابع عشر الميلادي.

اتجاهات الإصلاح:

سارت حركة الإصلاح، ابتداء من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، في اتجاهات رئيسة ثلاثة:

أولاً: الإصلاح السياسي: واستهدف تحرير البلدان الإسلامية من الاحتلال الأوروبي[1] ومقاومة الظلم والجور وامتهان كرامة الإنسان واضطهاد الشعوب وتسخيرها وإخضاعها للبطش والعسف والحرمان، والسعي إلى إقامة العدل والشورى والمساواة بين الناس استناداً إلى مبادئ الإسلام وأحكامه.

ثانياً: الإصلاح الديني: الدعوة إلى العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح في أمور الاعتقاد وفهم رسالة الدين، وتحرير العقيدة مما شابها من تشويش ولبس وخلط بين ما هو من أحكام الدين الحنيف ومن مبادئه وأصول شريعته، وبين ما تعارف عليه الناس في

(١) لفظ (الاستعمار) صكه جماعة من العرب النصارى في الشام الذين كان بعض منهم أعواناً للقوى الأوروبية الطامعة في العالم الإسلامي. فاستعمار الأرض عمل إيجابي، مشتق من عمر يعمر تعميراً وإعماراً. ولذلك فنحن نستخدم لفظ الاحتلال للتعبير الأوفي والأصح عن طبيعة العمل الذي قام به الغربيون في بلاد المسلمين.

بعض المجتمعات الإسلامية، من عادات وتقاليد وأعراف لا تمتّ إلى صحيح الدين بصلة.

ثالثاً: الإصلاح الاجتماعي: بإقامة المؤسسات والجمعيات والنوادي والمدارس والمعاهد التي تخدم الأهداف الاجتماعية، وبإنشاء الصناعات الحديثة، وبتعمير المدن وتشييد مدن جديدة (في مصر بصورة خاصة) بسبب التوسع في العمران وظهور المجتمعات الجديدة التي ارتبطت بالنهضة الاقتصادية التي أخذت تعم بعض البلدان في العالم الإسلامي في تلك الفترة، ثم البدء في إنشاء الجامعات بالمبادرات الأهلية، وكانت أولاها الجامعة المصرية (١٩٠٨م).

وينبغي أن يكون مفهوماً بصورة واضحة، أن التقسيم للاتجاهات التي سار فيها الإصلاح في العالم الإسلامي في العصر الحديث، هو من قبيل التقسيم المنهجي الذي تقتضيه طبيعة الدراسة؛ لأن مفهوم الإصلاح في العصر الحديث، أي في الفترة التي تمتد من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم يكن يعرف هذا الانفصام الذي شاع في فترة لاحقة، واستقر في الأذهان وفي مناهج التأليف، وذلك باعتبار وحدة المفهوم الإسلامي للإصلاح، التي تجمع بين العناصر جميعاً في إطار رؤية كلية متكاملة.

كان جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي مصلحين بهذا المفهوم الإسلامي الجامع، وهو المفهوم الذي استقر منذ بداية حركة الإصلاح، وقامت على أساسه الحركات التحريرية الاستقلالية التي انطلقت في بلدان العالم الإسلامي لمقاومة الاحتلال الأوروبي، فقد كانت هذه الحركات إصلاحاً إسلامياً بكل دلالات الكلمة، لأنها كانت تستهدف تحرير الأراضي الإسلامية من الاحتلال، مثلما كانت الحركة الإصلاحية التجديدية تستهدف تحرير العقل الإسلامي من الجهل وسوء الفهم ومن تأثيرات عصور الانحطاط والتراجع الحضاري.

ومن الطبيعي أن تتعدد زوايا النظر وتتنوع مجالات العمل في إطار هذه الرؤية الكلية المتكاملة للإصلاح، ولكن جوهر الإصلاح لايتغيّر، وأهداف الإصلاح تتجدد وفقاً للمتغيرات المرحلية، ولكنها تحتفظ بجوهرها بالمحور الذي تدور حوله، وهو إصلاح المجتمعات الإسلامية إصلاحاً عميقاً شاملا متكاملاً يرفع من مستوى الحياة ويجدد الدماء في شرايين الأمة وينهض بها نهوضاً ينتقل بها إلى مرحلة أكثر تقدماً وأوفر قوة.

وفي هذه الاتجاه سار الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، إلى أن اختل مفهوم الإصلاح، فصار الإصلاح السياسي والإصلاح الاقتصادي، في زعم فئة من المفكرين والكتّاب، لا علاقة لهما بالإصلاح الديني، وأصبح الإصلاح الاجتماعي في ميادينه المتشعبة ضرباً من العمل السياسي الذي لاينبغي أن يرتبط – عند هؤلاء – بالمفهوم الإسلامي الأصيل.

وقد ساهمت المناهج الفكرية الحديثة والمدارس السياسية والثقافية التي هيمنت على الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، في تعميق هذا المفهوم الدخيل على التصور الإسلامي والمناهض للمنهج الفكري الإسلامي، مما كان له أعمق الأثر في تحويل اتجاه الإصلاح عن مساره الطبيعي والدفع به في متاهات اختلطت فيها السبل، ومما يتناقض مع رؤية الثقافة المتكاملة التي عاشت بها الأمة قروناً متطاولة، والتي تجدد نفسها تجديدا يزيدها قوة ووضوحاً[1].

الكواكبي وضع اللبنة الأولى في قواعد العمل الإسلامي المشترك:

يحسب لعبد الرحمن الكواكبي أنه الرائد الأول في وضع تصور نظري جامع للتضامن الإسلامي في العصر الحديث من خلال كتابه (أم القرى)[2] الذي سبق به جميع من كتب في الفكر السياسي الإسلامي الحديث، من زاوية تعبئة الأفكار وحشد الطاقات لإقامة الأسس الأولى لما يصطلح عليه اليوم بالعمل الإسلامي المشترك.

ويقوم كتاب (أم القرى) على أساس قصة خيالية، فقد تصور المؤلف أن جمعية[3] من المسلمين اجتمعت في مكة المكرمة في يوم ١٥ من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، وأن كل قطر إسلامي أوفد عضواً يمثله في هذه الجمعية، وأنهم اختاروا العضو المكي رئيساً

(١) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٢١٧، دار الهلال، القاهرة.

(٢) طبع بعنوان (سجل مذاكرات جمعية أم القرى أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقدة في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ جامعة السيد الفراتي كاتب الجمعية) ونشره رشيد رضا في المجلد الخامس من مجلته (المنار) الصادرة في القاهرة سنة ١٣٢٠هـ.

(٣) أعضاء الجمعية التي تخيلها الكواكبي هم: الفراتي، الشامي، القدسي، الإسكندري، المصري، اليمني، البصري، النجدي، المدني، المكي، التونسي، الفاسي، الإنجليزي، الرومي، الكردي، التبريزي، التاتاري، القازاني، التركي، الأفغاني، الهندي، السندي، الصيني، ورئيسهم المكي، وكاتب الجمعية هو الفراتي نفسه (أي عبد الرحمن الكواكبي).

لهم، واجتمعوا قبيل الحج للتداول في أمور المسلمين يعرضون الأدواء، ويصفون الأدوية، ويشخصون ويبسطون العلاج.

تناول الكواكبي في كتابه (أم القرى) أسباب انحطاط المجتمع الإسلامي بتوسع وتفصيل، وأرجعها إلى ثمانية عشر سبباً دينياً واثني عشر سبباً سياسياً وخمسة عشر سبباً أخلاقياً وتربوياً، وبحث الكواكبي في هذه الأسباب على شكل حوار بين عدد من الشخصيات التي تخيلها وتناولها بالتفصيل وبإيراد الحجج والبراهين، فكانت تحليلاً علمياً لواقع المجتمع العربي الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي[1].

وقد وفق الكواكبي في تشخيص العلل التي تنخر في جسم العالم الإسلامي، وكان يرى أن (الفتور العام) في الأمة الإسلامية، هو رأس هذه العلل جميعاً إلى جانب تفرق المسلمين إلى شيع ومذاهب. وجاء الكواكبي في هذا الباب بأفكار وآراء وتحليلات على قدر كبير من الأهمية، خصوصاً إذا قورنت بالمستوى الفكري والسياسي العام الذي كان سائداً في تلك الفترة. ويلاحظ في هذا السياق أن فكرة (المؤتمر الإسلامي) التي دعا إليها من قبل جمال الدين الأفغاني، قد نفذها الكواكبي في (أم القرى)، فمنها انطلق، وعلى أساسها أقام بناء قصته التي وإن كانت غير واقعية، ولكنها تعكس ما كان يخامر أذهان النخبة ويجول في خواطرها في تلك المرحلة الدقيقة.

وعلى الرغم من تعدد الرأي في كتاب (أم القرى)، هل هو من تأليف الكواكبي بالكامل، أم أن غيره أوحى له بفكرته، أو حرره له، أو ساهم معه في تأليفه[2]، فإن الذي يهمنا بالأساس، في هذا السياق، هو أصالة فكرة الكتاب، وريادة الآراء والمقترحات التي وردت فيه؛ مما يجعل هذا الكتاب غير مسبوق في بابه، على وجه الإطلاق.

ولأهمية الأفكار والمقترحات التي جاء بها الكواكبي في كتابه (أم القرى) فإن بعضها لايزال صالحاً للتنفيذ، بسبب بعض المشكلات والعلل السياسية والاجتماعية

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٠، ص ١٤٥، الرياض.

(٢) يوجد من الكتاب والمؤرخين المعاصرين من يورد اسم محمد عبد ه ضمن الأشخاص الذين ساهموا في تأليف (أم القرى)، ولكن الأمر الذي لا يرقى إليه الشك والذي عرض له بعض ممن كتب عن الكواكبي وكتابه، أن ثمة تفاوتاً في أسلوب الكتاب، فهو أحياناً يعلو إلى مقام في الكتابة العربية رفيع المستوى، وأحياناً يهبط إلى مستوى أدنى وضعيف بصورة ملحوظة، فضلا عن الأخطاء في اللغة التي أحصاها عليه عباس محمود العقاد في الكتاب الذي أفرده للكواكبي.

والفكرية التي كان يعاني منها العالم الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر، لاتزال قائمة على الرغم من مضي أكثر من قرن عليها.

لقد كان الإصلاح الذي وضع له الكواكبي إطار عاماً في كتابه (أم القرى)، من قبيل الإصلاح المستمر الذي لا ينتهي عند مرحلة زمنية محددة، ولا يزال العالم الإسلامي في حاجة مستمرة إلى إصلاح أحواله وتوفيق أوضاعه، وإلى ترشيد، وتسديد وتغيير، وتحديث في إطار الثوابت والمبادئ والقيم غير القابلة للتغيير.

وحسب الكواكبي سبقاً وفخراً أن فكرة (المؤتمر الإسلامي) قد ولدت على يده، ورأت النور في كتابه، بل إن مصطلح (المؤتمر الإسلامي) ظهر أول ما ظهر على لسان الأفغاني ثم في قلم الكواكبي. ولذلك فإن مؤلف (أم القرى) يعد بحق رائداً كبيراً من رواد العمل الإسلامي المشترك، الذي انبعثت فكرته في كتابه الرائد[1]. وقد تبلورت فكرة المؤتمر الإسلامي عبر مراحل من التطور، انتقلت من مرحلة التأييد الواسع من مختلف الفئات ما عدا فئة محدودة جداً، في العقود الأولى من القرن العشرين إلى مرحلة المعارضة الشديدة على المستويين السياسي والفكري والثقافي في النصف الثاني من القرن الماضي، ولم تستقر فكرة المؤتمر الإسلامي في الواقع العربي الإسلامي باعتبارها حقيقة من حقائق هذا الواقع، إلا في أواخر العقد السادس من القرن الماضي، حين انعقد مؤتمر القمة الإسلامي الأول في الرباط بالمغرب في شهر سبتمبر من سنة ١٩٦٩م.

مآلات الإصلاح:

إن هذا التنوع في الأفكار البناءة التي طبعت مرحلة اليقظة والانبعاث، واصطبغت به حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، دلالة قاطعة على حيوية العقل الإسلامي، ويؤكد أن الاتجاهات التي سار فيها الإصلاح، وإن كانت قد انحرفت، وتشعبت،

---

(١) لا يزال كتاب (أم القرى) يحتاج إلى دراسات معمّقة وموسّعة من شتى الجوانب؛ لأنه من الكتب التي تطرح كثيراً من الأسئلة في سياق دراسة تطور الفكر الإسلامي السياسي في العصر الحديث، والمأمول أن تنطلق من هذه الندوة الدولية، الدعوة إلى قراءة جديدة لكتاب (أم القرى) تحديداً؛ إذ إنه من الملاحظ أن كتاب (طبائع الإستبداد) للكواكبي الذي ظهر في الفترة نفسها، قد نال حصة الأسد من اهتمامات النخبة المثقفة والمفكرة لاعتبارات مفهومة ليس هذا مجال الخوض فيها، على حساب (أم القرى) الذي نسجل هنا أنه قد تعرض للإهمال ووقع عليه التعتيم في الدوائر الثقافية وفي المنابر الإعلامية.

وتداخلت، وتعثرت في أحايين كثيرة فإنها انتهت إلى تحقيق بعض الأهداف التي كانت تراود أذهان طلائع الإصلاح ورواد اليقظة.

ومهما تكن الزوايا التي ننظر منها إلى النتائج التي حققها الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث في مرحلة المعاصرة فإننا لا ينبغي أن نغفل عن أمور ثلاثة نراها بالغة الأهمية:

أولها: أن العالم الإسلامي تعرض لاختبارات شاقة، وخاض معارك صعبة، ودخل في مواجهات شديدة، طوال القرن العشرين، استنزفت منه الطاقات وأضعفت القدرات، وضيعت عليه فرصاً كثيرة للبناء والنماء والتقدم. وكانت القوى الأوروبية التي تآمرت على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، والتي عملت على تمزيق الوحدة الإسلامية، على الرغم مما كانت عليه من ضعف وهزال وتهلهل، هي القوى ذاتها التي حاربت حركات الإصلاح والاستقلال والتحرير في العالم الإسلامي،وجاء تأسيس دولة إسرائيل فوق الأراضي الفلسطينية وبتواطؤ تام من القوة الجديدة التي ظهرت على الساحة الدولية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى جانب القوى الأوروبية التقليدية، ليزيد من حدة الأزمات والصعوبات والمواجهات والأعباء التي عانى منها العالم الإسلامي طوال القرن الماضي، مما كان له تأثيرات قوية على حركة الإصلاح في جميع اتجاهاته ومساراته.

ثانيها: عرفت حركة الإصلاح انتكاسات عديدة، وحوربت في مناطق شتى، وفي عهود مختلفة، وتعرضت لتشويه مقاصدها وتزييف حقائقها والكيد لها والتآمر ضدها للدفع بها إلى الانحراف، أو إلى الغلو والتطرف أحياناً، أو إلى الانغلاق والتزمت في أحايين أخرى؛ مما كان له أسوأ الأثر على المجتمعات الإسلامية التي لم تنهض نهوضاً متوازناً متكاملاً.

ثالثها: استقرت حركة الإصلاح في العقود الثلاثة الأخيرة على قواعد ثابتة، حيث صار الإصلاح الشامل والتغيير والتجديد والتحديث، مطلباً لا خلاف عليه، وضرورة من ضرورات البناء والنماء، وأصبحت حركة الإصلاح في المرحلة الراهنة تحظى بالإجماع، ونال التأييد والتجاوب من الفئات العريضة من الشعوب ومن حكومات دول العالم الإسلامي. وهذا الواقع لاينفي ضرورة الوفاء بمتطلبات التصحيح والتقويم والترشيد والتكيف مع المتغيرات مع التركيز على بناء الإنسان –أولاً– وفق أسس ثابتة وبمناهج علمية مستقرة، وبناء الأوطان اقتصادياً واجتماعياً، وبتصحيح الأوضاع العامة في العالم الإسلامي بالمنهج الرشيد، وبما لا يتعارض مع ثوابت الأمة.

خاتمة:

لقد كان عبد الرحمن الكواكبي علماً من أعلام الحضارة العربية الإسلامية في طورها الحديث، أولئك الذين ساهموا في إغناء الفكر، وتأسيس النهضة ورسم معالمها. ومن الوفاء له وللرواد العظام من مفكري الأمة وعلمائها، أن يحتفى بعطائهم، وينتفع بأفكارهم ورؤاهم لمواجهة التحديات الحضارية العاتية التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم، فما أشبه الليلة بالبارحة.

وقد اجتهد عبد الرحمن الكواكبي في التفكير والتنظير والتأليف، وفي الدعوة إلى التطوير والتحديث وتجديد بناء الحضارة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي. وكان رائداً في بعض اجتهاداته ومواقفه وكتاباته.

ومن الإنصاف للكواكبي أن نقول إن حركة الإصلاح التي قام بها مع كوكبة من الرواد سواء الذين عاصروه، أو الذين خلفوه وساروا على نهجه قد حققت بعض أهدافها، وأحدثت تغييرات فكرية وثقافية عميقة في المجتمعات الإسلامية، كان لها تأثيراتها القوية النافذة في انتظام مسيرة الإصلاح والبناء والتجديد، منذ نهاية القرن التاسع عشر، إلى يومنا هذا.

وفي ضوء هذا كله، نقول إن حركة الإصلاح التي قام بها عبد الرحمن الكواكبي في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لاتزال مستمرة، بصورة تتناسب وطبيعة العصر، وتتلاءم مع متغيراته، ولم تتوقف هذه الحركة عن العطاء قط، ولم تحدث قطيعة بينها وبين الحركة الإصلاحية التجديدية العميقة التي تتواصل في العالم الإسلامي، وفي هذه المرحلة، بأساليب متطورة وبمناهج حديثة وبفكر جديد يستمد أصوله من الفكر الإسلامي المستنير بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية وبعطاء الحضارة الإسلامية المتواصل.